الفصل الثاني

المرحلة الأولى من الجهاد

في المدرسة الثانوية وفي مدرسة الحقوق

قلنا: إن نشأة الفقيد الوطنية بدأت سنة (١٨٩٠م)، وهو طالب في المدرسة الثانوية، وقد أسس أول ما أسس (جمعية الصليبة الأدبية)، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب، فكان يقف في الجمعية خطيبًا في مساء كل جمعة مرتجلًا ما تملي عليه البديهة، وكان يسترعي الأنظار ويملك الأسماع بمواهبه الخطابية.

دخل مدرسة الحقوق الخديوية في (أكتوبر سنة ١٨٩١م)، وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان قلبه يتقد وطنية وإخلاصًا لمصر، فلم يستطع أن يصبر حتى ينال شهادة الليسانس لكي يبدأ الجهاد؛ بل بدأ جهاده وهو في مهد التعليم في المدرسة الثانوية، ثم في مدرسة الحقوق.

وكان رفيقه وزميله في دراسة الحقوق فؤاد سليم (باشا)، وقد تلاقيا لأول مرة في المدرسة المذكورة، فتعارفت روحاهما، وائتلفا ائتلافًا قلبيًّا وروحيًّا، وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة، وتعرف الفقيد بواسطته إلى والده لطيف باشا سليم، فكان له خير مرشد ومشير، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير، كان الفقيد يسبق عصره في النضج وقوة الوجدان والشعور. كان وهو في مدرسة الحقوق يتعرف إلى الرجال البارزين في ذلك العصر، ويتصل بهم ويناقشهم، ويتبادل وإياهم الآراء والأفكار، نذكر منهم الشيخ علي الليثي الشاعر والأديب الكبير، ولطيف باشا سليم، وإسماعيل باشا صبري الشاعر المشهور، وعلي بك فخري، وأمين باشا فكري، ومحمود بك سالم، وإسماعيل بك شيمي، وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية.

وقد حدث يومًا وهو في مدرسة الحقوق أن جرت بينه وبين صديقه فؤاد سليم مناقشة حادة أصدرت المدرسة على أثرها أمرًا بحرمانهما دخولها أسبوعًا، فاستاء كلاهما من هذا القرار، ولم يرد فؤاد بك أن يعود إلى المدرسة بعد إنتهاء الأسبوع؛ بل التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التي تأسست في ذلك العهد، أما مصطفى فعاد إلى مدرسته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الأولى.

انتقل المترجم من السنة الأولى إلى السنة الثانية بنجاح، وفي صيف ذلك العام (١٨٩٢م) قصد إلى مدينة الإسكندرية لتبديل الهواء، فاجتمع هناك بصاحب الأهرام «بشارة باشا تقلا»، وكان واسطة التعارف بينهما صديقه الحميم الشاعر «خليل بك مطران»، فأعجب به وأجله وأفسح جريدته ينشر فيها ما يبعث إليه من الرسائل الوطنية.

وفي شهر أكتوبر سنة (١٨٩٢م) رغب إليه صديقه فؤاد بك سليم أن يتم دراسته في مدرسة الحقوق الفرنسية؛ ليكونا بهما معًا، فمالت نفسه إلى العمل بهذا الرأي لسببين؛ أحدهما أنه يجد في هذه المدرسة الحرية التي تصبو إليها نفسه، فلا يتقيد بالنظم المتبعة في مدرسة الحقوق الخديوية، والثاني أن يستزيد من دراسة اللغة الفرنسية، فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع عن قضية الوطن أمام الرأي العام الأوربي. وقد جمع وقتًا ما بين المدرستين، فكان يقضي سحابة النهار في المدرسة الأميرية، والمساء في المدرسة الفرنسية؛ إذ كانت الدراسة فيها تبدأ قبل الغروب، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الإباء وعلو النفس والتعلق بالحرية، بله الجد والمثابرة على الدرس، فقد أراد أن يكون المجال فسيحًا أمامه لينصرف من إحداهما إلى الأخرى إذ ما ضيق على ضميره نظام أو إنسان، وفي تلك السنة المكتبية (١٨٩٢-١٨٩٣م) أكثر من الكتابة في جريدتي الأهرام والمؤيد.

وكان وهو يخطب بين إخوانه الطلبة يثير حماستهم الوطنية لمقاومة الاحتلال؛ فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية، واجتمعت قلوبهم على محبته والإعجاب به.

وفي (نوفمبر سنة ١٨٩٢م) زار الخديوي عباس الثاني مدرسة الحقوق الأميرية، فكان التلميذ «مصطفى كامل» من الطلبة النجباء الذين رحبوا به وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

بشرى الحقوق بسيد الأمراء كنز العلا عباس ذو النعماء
بشراك يا دار العدالة والهدى بمليك مصر وأوحد العظماء

وفي يناير سنة (١٨٩٣م) لمناسبة أزمة إقالة الوزارة الفهمية[1] قامت مظاهرة وطنية من طلاب المدارس العالية وفي مقدمتهم طلبة الحقوق؛ لتأييد الخديوي في خلافه مع اللورد كرومر، وكان الفقيد في طليعة هذه المظاهرة.

وفي أوائل تلك السنة ألَّف رسالة «أعجب ما كان في الرق عند الرومان»، وهذه الرسالة على صغر حجمها أوضحت حقيقة الاستعباد الروماني المنافي لأحكام الرق في الشريعة الإسلامية.

إنشاء مجلة المدرسة

وفي تلك السنة أيضًا أنشأ مجلة أسماها (المدرسة)، صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣م (غرة شعبان سنة ١٣١٠هـ)؛ وهي مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر في غرة كل شهر عربي، وجعل شعارها المطبوع في صدر كل عدد (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك).

كان المترجم مدير المجلة ومحررها، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة المقالات والرسائل فيها، وقد رحب بها السيد عبد الله نديم (خطيب الثورة

(١) راجع تفاصيل هذه الأزمة في الفصل السادس عشر.

العرابية)، وكان قد ظهر بعد اختفائه وأصدر مجلته «الأستاذ» فنوَّه فيها بظهور مجلة الفقيد[١].

وتبدو في مجلة (المدرسة) روحه الوطنية، فالروح التي أملت عليه إصدارها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره هي ذات الروح التي أوحت إليه إصدار (اللواء) حين بلغ السادسة والعشرين، فالينبوع واحد، وهو ينبوع الوطنية الفياض.

إنَّ ظهور مجلة (المدرسة) يعطيك فكرة عن شخصية المترجم، فهي أول مجلة مدرسية أصدرها طالب مصري، وفي إقدامه على إصدارها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره ما يدلك على عظيم همَّته ومضاء عزيمته، وقوة وطنيته، فليس من السهل على طالب في مثل سنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وإدارتها والإنفاق على تكاليفها؛ بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال، ولكن عبقرية المترجم كانت تذلل الصعاب، ويدل إصدارها كذلك على ميله للصحافة منذ نشأته الوطنية، لا غرو فالصحافة كانت أداة كبرى لجهاده وكفاحه. ويكشف أيضًا هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة في فؤاده، فهو يقتطع من وقته لإصدار مجلة يبث فيها بين الشباب روح الوطنية والتهذيب.

كتب إلى أخيه «علي بك فهمي كامل» في ١٩ فبراير سنة (١٨٩٣م) كتابًا يقول فيه: «أبعث إليك في هذا البريد بمجلة المدرسة التي أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة».

وهذا الكتاب يدلك على الفكرة التي صدرت عنها المجلة، فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة؛ بل يرمي إلى أداء الواجب الوطني نحو بلاده.

وكان عدا إصداره مجلة المدرسة ينشر بين حينٍ وآخر المقالات في جريدتي الأهرام والمؤيد.

---

(١) مجلة «الأستاذ» للسيد عبد الله نديم، عدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣م.

اتصاله بعبد الله نديم

عاد السيد «عبد الله نديم» إلى مصر من منفاه سنة (١٨٩٢م)، فاتصل به الفقيد، وعرف من أحاديثه أسرار الثورة العرابية؛ إذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها[١]، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها، وأدرك أسباب إخفاقها وهزيمتها، وإذ كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاستقلالية، فإن أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيرًا في تعرف مواطن الخطأ وأسباب الإخفاق في الثورة العرابية، فتجنبها في جهاده، كما عرف شيئًا كثيرًا من دسائس السياسة الإنجليزية، تلك الدسائس التي كان لها دخل كبير في إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال، وإنك لتلمح في حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبه أخطاء العرابيين، فهو لم يفكر في اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية؛ بل كان يعتمد على قوة الرأي العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية. وإذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديوي توفيق باشا قد مكن للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام في مصر، فإنه نأى عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع عباس الثاني، وتفادى الاصطدام به برغم ما شجر بينهما من خلاف كما سيجيء بيانه، وكان ينقم من عرابي استسلامه للإنجليز، وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام في حالة الأمة المعنوية، فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال؛ مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع. وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درسًا لباعث الحركة الوطنية، جنَّبه مواضع الخيبة والإخفاق في الجهاد، والزعامة الحقة هي التي تستفيد من تجارب الماضي، وتعتبر بمصائب الوطن، فتقيه مواطن الزلل، وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد.

---

(١) ترجمنا له في كتابنا «الثورة العرابية» ص٥٣١، طبعة سابقة.

سفره إلى باريس لأداء امتحان الحقوق

سافر الفقيد لأول مرة إلى أوربا يوم الجمعة ٢٣ يونية سنة (١٨٩٣م) ليؤدي امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس، فأداه بنجاح[١]، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سنحت له ليستزيد من معارفه ويكتسب من مشاهداته في بلاد الحضارة والوطنية، وكان أثناء مقامه بباريس مثال الجد والاستقامة، منصرفًا عن اللهو واللعب، ولم يكن همُّه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم إلا أن يزور المكاتب والمعاهد، أو يحادث ذوي الرأي فيما يتعلق بشئون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال، وكان في خلال رحلاته هذه لا يفتأ يذكر مصر ومجدها. كتب إلى أخيه «علي بك فهمي كامل» خطابًا من باريس في ٢٩ يولية سنة (١٨٩٣م) يقول فيه:

«لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين، فرأيتهم جميعًا منكبين على العلم؛ ولكني أؤكد لك أن المصري أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء، ولا ينقصه إلا الإرادة التي هي أس النجاح».

ولقد أفاد المترجم كثيرًا من ذهابه إلى أوربا عامة وفرنسا خاصة؛ فإن هذه السياحة التعليمية، قد فتقت ذهنه وعلمته من شئون الأمم والجماعات مالم يكن يعلم، وعرف فيها أوساطًا لم يكن يعرفها، واتصل بشخصيات لم يكن ليتصل بها لو بقي في مصر، وكانت هذه الرحلة باكورة سياحاته في أوربا التي رفعت شأنه في ميدان الجهاد القومي وجعلت اسمه عالميًّا، وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات؛ إذ نقلها إلى أذهان وهيئات كانت مجهولة فيها. ولا شك أن اتصاله بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيرًا من الوجهة العلمية والمعنوية؛ فإن

(١) ذكرت «جريدة المؤيد» نجاحه في عدد ٣٠ يولية سنة ١٨٩٣م.

وطنية الشعب الفرنسي هي بلا مراء قدوة للشعوب التي تريد أن تحيا حياة الحرية والكرامة.

عاد من أوربا في أغسطس سنة (١٨٩٣م) ووالى دراسة الحقوق وإصدار مجلة (المدرسة)، وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) إذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة، فانضم إلى هذه الهيئة، وكانت تضم الصحفي والخطيب والقاضي والضابط، وكلهم من خيار الرجال.

رواية (فتح الأندلس)

وفي ديسمبر سنة (١٨٩٣م) أخرج رواية (فتح الأندلس) ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس[١]، وأظهر فيها فضل الصدق والأمانة والثبات وقوة العزم والإرادة، وهي الصفات التي كانت أكبر عضد للفتح العربي، وقصد إلى تربية الأمة على الفضائل الوطنية.

امتحان السنة الثانية

ثم قصد إلى فرنسا في صيف سنة (١٨٩٤م) وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية، وزار باريس وبروكسل، ثم أخذ بعد نجاحه يراسل الأهرام؛ فنشر بها ست مقالات عن معارض ليون وأنفرس، وعاد إلى مصر في سبتمبر، واعتزم أن يؤدي امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس في نوفمبر من تلك السنة.

(١) «المؤيد» عدد ١٨ ديسمبر سنة (١٨٩٣م).

مصطفى كامل في التاسعة عشرة من عمره

حصوله على شهادة الحقوق (نوفمبر سنة ١٨٩٤م)

وعلى ما في هذا العزم من الإجهاد، فإن قوة إرادته كفلت له تحقيق أمنيته، فسافر إلى باريس في أكتوبر سنة (١٨٩٤م)، ووجد صعوبة في أداء الامتحان النهائي في كلية باريس؛ إذ لا يتفق ونظامها أن يؤدي الطالب امتحانين في سنة واحدة، فاستعان بأستاذيه في مدرسة الحقوق الفرنسية؛ وهما المسيو دير وزاس ناظر المدرسة، والمسيو موللر أستاذ الاقتصاد السياسي بها، فنصحاه بأن يعدل عما اعتزمه إشفاقًا على صحته؛ ولكنه أصر على عزمه. ولما لم تقبل مدرسة باريس أداء امتحانين في سنة واحدة ساعداه لدى كلية (تولوز) في أن يؤدي أمامها الامتحان النهائي، فقبل طلبه بوساطة ذينك الأستاذين، وانتقل المترجم إلى تولوز، وهناك أكب على الدرس لكي

يتم علوم السنة الثالثة، ودخل الامتحان، فنجح فيه ونال شهادة ليسانس الحقوق في نوفمبر سنة (١٨٩٤م) وله من العمر عشرون سنة.